

المثقف وتفعيل مسار المعرفة - إدوارد سعيد أنموذجا - .Educator and Activate Knowledge Pathway - Edward Esaid Model

 ليلي تحري

Tahri leila

جامعة الشاذي بن جديد الطارف (الجزائر)، l.tahri@univ-eltarf.dz

تاريخ النشر: 2025/12/25

تاريخ القبول: 2024/07/20

تاريخ الاستلام: 2024/04/29

الملخص:

تسعى الورقة النقدية للوقوف عند قضايا المثقف باعتباره من أبرز الفاعلين الثقافيين في كشف وإدانة الخطابات السلطوية في خطاب ما بعد الاستعمار، فكان تناولنا لمثقفين غربيين مارسوا أدوارا طلائعية في سبيل نصرته كلمة الحق وسنخصص بالتحليل تجربة الناقد والمفكر العربي الفلسطيني إدوارد سعيد الذي استطاع أن يجترح لنفسه منهجا متميزا، فكان متكلمًا باسم الشرق في الغرب ومدافعًا عن الإسلام والعالم الثالث، ارتحل بين الأزمنة والأمكنة والتواريخ فتشكلت سيرته التي انبثقت من تجاذبات ما بين الفضاءات وانفتحت على صيرورة من الانزياحات والتوترات فكانت صورة مثقف عالمي أبي إلا أن ينخرط في الشأن العام لمجتمعه العربي في الوقت الذي حددت بمجتمعه أخطارها الكفة، فكان مثقفا يعي تماما الدور المنوط به والموكل إليه.

كلمات مفتاحية: المثقف، المعرفة، إدوارد سعيد، السلطة، الاستشراق، المنفى.

Abstract

The banknote seeks to stand up to the issues of the intellectual as one of the most prominent cultural actors in exposing and condemning authoritarian rhetoric in post-colonial discourse We will analyse the experience of the Palestinian Arab critic and intellectual Edward Said, who was able to wound himself with a distinctive approach. He was a spokesman for the East in the West and a defender of Islam and the Third World. "His history, which emerged from the attractions of the spaces and opened to the emergence of changes and tensions, was the image of a patriarchal global intellectual but engaged in the public affairs of his Arab society at a time when his community was endangered. He was an intellectual who was fully aware of the role entrusted to him and his client.

Keywords:

Intellectual. Knowledge, Edward Said, Power, Orientalism, exile.

* Auteur correspondant : ليلي تحري

Langues & Cultures / © 2025 The Authors. Published by the University of Adrar, Algeria.

This is an open access article under the CC BY license (<http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>)

مقدمة:

ما يزال سؤال المثقف يطرح بشدة في الأوساط الفكرية الغربية والعربية، ولعل ذلك يعود إلى الحاجة إلى نموذج طلائعي للمثقف الذي يسعى لتنوير المجتمعات ويتطلع إلى قيم وممارسات اجتماعية جديدة، يناقش من خلالها الوضع المعقد في المجتمع في ضوء الجو الخانق الذي يحبس أنفاس المثقفين، وفي ضوء الحصار الذي تمارسه السلطة، لذلك وجب إعادة هيكلة المشاريع الفكرية وإعادة برمجة أدوار المثقفين، لأننا أمام انهيار في المؤسسات الثقافية في العالم العربي على وجه الخصوص، نحن أمام تركيبة بنيوية فكرية، ثقافية تتعرض للاهتزاز، فما يستنكره إدوارد سعيد في الخطاب حول المثقف هو غياب القيم لدى المثقفين الذين يجعلون من الثقافة وسيلة هيمنة، لذلك فالدور الطلائعي للمثقف يكمن في الوقوف في وجه السلطة وممارساتها، ليكون الالتزام الأخلاقي هو ما يحتاجه المثقف الحقيقي، أن يمتلك المثقف الوعي النقدي لتفسير الواقع في إطار رهان تنويري يسعى إلى المساهمة في فهم مشاكل الحاضر وفي سياق مشروع يؤكد على أهمية الوعي التاريخي الذي يجمع بين التحليل الثقافي والتاريخ كاستراتيجية مضادة لمواجهة استراتيجيات الهيمنة التي تمارسها القوى السلطوية.

1. الإطار المرجعي للمثقف في الفكر الغربي: يكشف تاريخ الأفكار عن العلاقة بين الثقافة والسلطة الثقافية بما هي عبارة عن أشكال رمزية تستخدمها السلطة لإضفاء الشرعية على ممارساتها اللاقانونية، إنها السيطرة بواسطة المؤسسات الثقافية التي تناولها الإيطالي أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci ولوي ألتوسير Louis Althusser في كتابه "الأجهزة الإيديولوجية للدولة"، فالدولة كجهاز من الأجهزة القمعية لا تتأثر لها السيطرة إلا بواسطة الإنتاجات الرمزية، ويلعب المثقف الوسيط بين ثنائية الثقافة والسلطة ولفتة سريعة على التاريخ الغربي منذ عصر الأنوار تبين كيف مارس المثقفون دورا طلائعيا في ضبط القيم والممارسات وصوغ الأحداث، لكن مع التطورات الحاصلة في البنى الاجتماعية العربية على وجه الخصوص نقف عند كون المثقف هو الحامل لإيديولوجيا السلطة المهيمنة، إنه المثقف التابع أو المثقف المزيّف الذي أدانه سارتر وبندا وغيرهم من المثقفين الذين حملوا مشاريعا ثقافية قائمة على فضح السلطة وتعرية ممارساتها، من أولئك المثقفين نقف عند:

1.1. جان بول سارتر Jean-Paul Sartre: الفيلسوف الوجودي الذي لم تكن المعرفة عنده مجرد تنظير بل ممارسة وبالعودة إلى كتابيه ما الأدب؟ ودفاع عن المثقفين يتساءل من هو المثقف؟ هل هو الذي يمارس المعرفة والكتابة والإبداع" حقيقته تكمن في إدراكه التعارض الكبير بين البحث عن المعنى والحقيقة من جهة والإيديولوجيا السائدة من ناحية أخرى.. المثقف هو الإنسان الذي لا يحمل تفويضا من أي إنسان ولا تعين له كيانه أي سلطة وهو بصفته هذه ليس نتاج قرار من القرارات كما هو شأن الأطباء والأساتذة بصفتهم وكلاء للسلطة وإنما نتاج مسخ لمجتمعات مسخ فليس هناك ما يدعيه لنفسه وليس هناك من يعترف به لا الدولة ولا النخبة. السلطة ولا المجموعات الضاغطة" (سارتر، 1973، ص26)

جوهر المثقف عند سارتر هو البحث الفكري الحقيقي الذي يدمر الحدود التي تفرضها الإيديولوجيات السائدة، وهو يقسم المثقف إلى المثقف التقني: الذي يقبل بالإيديولوجيا السائدة ويتدبر أمره معها.. وقد يحصل أن يقوده ضغط السلطة إلى العدول عن موقف صحيح فيتنازل عن سلطانه" (سارتر، 1973، ص31)

إن المثقف الحقيقي هو الذي يدرك ويعي التعارض القائم فيه وفي المجتمع بين البحث عن الحقيقة العملية "مع كل ما يترتب عن ذلك من ضوابط ومعايير وبين الإيديولوجيا السائدة مع منظوماتها من القيم التقليدية... هذا الوعي يكشف عن تناقضات المجتمع

الجوهرية أي عن المنازعات الطبقية وعن صراع عضوي داخل الطبقة السائدة بالذات بين الحقيقة التي تحتاج إليها لإنجاح مشروعها وبين الأساطير والقيم والتقاليد التي تصونها وترعاها والتي تريد أن تعدي بها الطبقات الأخرى ضمنا لهيمنتها " (سارتر، 1973، ص33)

تغدو وظيفة المثقف هي الثورة على الإيديولوجيات السائدة والتعبير عن تمزقات المجتمع في ظل تلك الإيديولوجيات، وظيفته تكمن في خدمة الطبقات الشعبية "فمن واجب المثقف هو أن يناضل ويكافح بلا انقطاع الإيديولوجية التي تتولد بلا انقطاع من جديد وتنبعث دوما وأبدا في أشكال جديدة، أن يناضل ضدها ويكافحها بوضعه الأصلي ويتكوينه وتأهيله" (سارتر، 1973، ص56)

وأما النوع الثاني من المثقف فهو المثقف المزيف أو ما كان نيزان يسميه كلب الحراسة الذي تنتجه الطبقة السائدة للدفاع عن الإيديولوجيا السائدة إنه مثقف مباع" (سارتر، 1973، ص43)

2.1. أنطونيو غرامشي: المناضل الماركسي الذي كان يسعى إلى تحويل المعرفة إلى صراع اجتماعي، مكث في سجون الفاشية الإيطالية ورفض الركوع إلى موسوليني "السجن وسيلة للمواجهة إن لم يمكن وسيلة للترفيه أو على الأقل ضرورة بحكم أنه لا يخيفني كفضية ولا يحبطني كوضع حقيقي بالإضافة إلى أن وضعيتي الصحية نفسها تمنحني بعض القلق لكنها اليوم في السجن أعادت إلي بعض الثقة برهنت لي تجربتي أنني أكثر قوة حتى جسديا .." (غرامشي، 2014، ص54)

السجن شيء رهيب لكنه بالنسبة لي إذلال إذا رافقه الضعف الأخلاقي وإذا صاحبتة الخيانة فالأمر أشد سوءا .." (غرامشي، 2014، ص62)

مارس غرامشي نفوذا كبيرا في الحقل الثقافي الغربي والعربي من خلال مجموعة من المفاهيم: المثقف، الهيمنة، المجتمع المدني... كتب في مذكرات السجن "إن جميع الناس مفكرون ومن ثم نستطيع أن نقول: ولكن وظيفة المثقف أو المفكر في المجتمع لا يقوم بها كل الناس" (ادوارد، 2006، ص32)

إن وظيفة المثقف من وجهة نظره يمكن أن تقسم إلى نوعين: الأول هو المثقف التقليدي الذي يمارس المعرفة باعتبارها مهنة وأما المثقف العضوي هو الذي يندمج مع المجتمع والطبقة التي ينتمي إليها ويحاول أن يثورها، إنه المثقف المنسق الذي "يشارك في النشاط الاجتماعي، بمعنى أنهم يناضلون دائما في سبيل تغيير الأفكار والآراء وتوسيع الأسواق...! نهم يتميزون بالحركة الدائمة والإنتاج الدائب الذي لا يتوقف" (ادوارد، 2006، ص34)

3.1. جوليان بندا Julien Benda: يعرف المثقفين بأنهم عصابة ضئيلة من الملوك الفلاسفة من ذوي المواهب الفائقة والأخلاق الرفيعة الذين يشكلون ضمير البشرية. (ادوارد، 2006، ص34)

يذهب بندا إلى أن المثقفين هم ضمير البشرية، ووجه نقده اللاذع إلى المثقفين الانتهازيين الذين يتخلون عن رسالتهم ويفرطون في مبادئهم وقيمهم في كتابه "خيانة المثقفين" ويشير إلى مجموعة من المثقفين الحقيقيين من أمثال سقراط ويسوع المسيح عليه السلام، سبينوزا، فولتير... "إن المثقفين الحقيقيين هم الذين لا يتمثل جوهر نشاطهم في محاولة تحقيق أهداف عملية أي جميع الذين ينشدون المتعة في ممارسة أحد الفنون أو العلوم أو التأملات الميتافيزيقية وباختصار في الظفر بمزايا غير مادية" (ادوارد، 2006، ص35)

جوهر المثقف عنده هو ذلك المفكر الملتزم الذي يحارب الفساد ويفضح الممارسات السلطوية ويسعى إلى نشر قيم الصدق والعدالة، من هنا يتجلى تعريف بندا للمثقف الحقيقي "فهو يفترض أنه على استعداد لأن يحرق علنا أو أن ينبذ من المجتمع تماما أو يصلب، فالمثقفون في نظره هم شخوص رمزية تتسم بابتعادها عن الشؤون العملية ابتعادا لا يقبل أدنى تنازل" (ادوارد، 2006، ص 37).

انطلاقا من هذا المفهوم للمثقف الحقيقي من طرف بندا نشير إلى تاريخ المثقفين الغرب وحتى العرب الذين دافعوا من أجل الالتزام برسالة المثقف كما وجب أن تكون فكان مصير أعمالهم الحرق والمصادرة والمحاكمة وحسبنا أن نذكر في هذا المقام ما تعرضت له مؤلفات أزهار الشر ليدولير، رواية مدام بوفاري لفلوبير وأما في الثقافة العربية فكان الإفتاء بحرق كتب الغزالي وابن رشد، تاريخ القتل مع العلاج...

2. المثقف في السياق العربي:

1. المشروع الفكري لإدوارد سعيد: من الاستشراق إلى الثقافة والإمبريالية

هو المثقف الذي غيرت كتاباته خارطة الحياة الفكرية وحمل مشروعه الفكري هموم المثقف وأدواره الحقيقية في كتابه صور المثقف، ربط بين المثقف والمنفى فكان المنفى مأوى المثقفين، إنه مصدر للقوة والتحدي والخروج من أسر الهوية فرغم برودة المنفى إلا أنه امتياز، تبلور تفكير إدوارد سعيد Edward Said في مؤلفه الاستشراق الذي كان نقدا مضادا لكل البديهيات التي تنزع إلى التمرکز الأوروبي إضافة إلى الثقافة والإمبريالية اللذان دشّن بهما مشروعه الفكري القائم على المقاومة ومساءلة الخطابات المركزية.

عنيت مؤلفات إدوارد سعيد بتناول قضايا الهوية والاختلاف، الشرق والغرب، المركز والهامش، وسعى إلى فضح الإيديولوجيا الغربية وتقويض المقولات المركزية لتعرية الثقافة السلطوية، فقد كان أكبر اهتمام نهضت به مؤلفاته هو تهميش الثقافة الغربية ورفض السرديات الكبرى التي هيمنت على التاريخ العالمي.

بحث إدوارد سعيد في الخطاب الاستعماري ومخلفاته على الشعوب الضعيفة وعمل على الوقوف في وجه التهميش والتعالي والهيمنة وفضح الإيديولوجيات الأورو أمريكية من خلال كتاب "الاستشراق" الذي كان قراءة للخطاب الثقافي الغربي ومساءلة للإيديولوجيا التي تقوم عليها الخطابات الغربية "فهو أسلوب غربي للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه والتسلط عليه". (ادوارد، 2006، ص 46)

لقد عبر الفكر الاستشراقي عن مركزية الغرب فكان موضوعه الشرقي الذي يوضع في قاعة المحاكمة في محاولة لتصحيح مساره من طرف الغربي، ومن ثم أصبح ممارسة تمارس تأكيداً لمركزية المركز ودونية ما عداها، فكانت الدراسات الاستشراقية انتهاكا لحرمة الشعوب وإسكات صوته والإطاحة بقدراتها بما تقتضيه قواعد الإمبريالية الغربية "الاستشراق بما هو مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق : التعامل معه بإصدار مقررات حوله وإجازة الآراء فيه وحكمه وإيجاز الاستشراق أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه وإنتاجه سياسيا واجتماعيا وعسكريا وعلميا وعقائديا" (ادوارد، 2005، ص 47)

إن معاينة الغرب للشرق كانت في إطار القوة والفوقية وفي إطار معطيات علاقة جدلية بين الشرق والغرب "فالعلاقة كما يتمثلها سعيد هي علاقة من القوة ومن السيطرة ومن درجات متفاوتة من الهيمنة المعقدة المتشابكة "الاستشراق 41 وذلك من خلال

إخضاع تلك الشعوب لسوء التمثيل وإحالتها إلى فضاءات الهامش وتقليص وجودها وتفعيل وجود الآخر المتربولي في سياق مشروع ثقافي للإمبراطورية القائمة على أساس القوة وإنتاج الصور النمطية "فالعلاقة ما بين المعرفة والسلطة هي التي أوجدت صورة الشرقي، وطمست من زاوية ما وجوده باعتباره إنساناً" (إدوارد، 2005، ص41)

إن من يمتلك السلطة هو من يمتلك التاريخ والمعرفة، ومزيد من المعرفة يقود إلى المزيد من إحكام السيطرة على الشعوب، ولما كان الغرب هو من يمتلك سلاح المعرفة حققت له السيطرة، "فقد عزز الاستشراق بالمعرفة الأكيدة لكون أوروبا هي التي تسيطر." هي معادلة صاغتها قواعد اللعبة الإمبريالية التي عمقت فكرة التمرکز الغربي التي صيغت من طرف النظريات الفكرية وبتلك الصورة كان "الاستشراق" عبارة عن مؤسسة فكرية وثقافية قائمة على طمس الهوية العربية والوجود العربي وإلغاء كيانه من طرف الغربي الذي راح يستحضر الأنا العربي لا لشيء إلا ليقارن بيننا وبينه من حيث هو المتطور والآخر المتخلف، هو المثالي والآخر الشهواني المنحط وغيرها من الأوصاف المنحطة التي همشت الشرقي فتشكلت بذلك تلك الصور الدونية بطريقة طمست فيها الحقائق وغابت فيها الهويات" (إدوارد، 2005، ص79)، إنه الشرق الخيالي الطفولي، العاجز، القاصر، الشرق المؤنث مقابل ذلك النسق الثقافي الآخر: المذكر، الإنساني، المتطور، المقترن بالعلم والتكنولوجيا. هذا الادعاء بالتفوق الذي نسبته الثقافة الغربية لنفسها قام كحیثیات للاستعمارية ومبررات لصالحها، فكان الاستشراق عبارة عن إنشاء يبرر مشروعية السيطرة الغربية على الشرق ومن خلال تلك الصورة النمطية المقترنة بالدراسات الاستشراقية عمقت المركزية الغربية التي لم تكن سوى التعبير عن التمرکز الغربي الذي صاغه الغرب "فكان الاستشراق هو وجه الاستعمار الفكري، بل إنه رسالة استعمار وإمبريالية عالمية" (بن الوليد، 2010، ص186) وبتلك الرسالة الاستعمارية أجاز اختراق الشرق وفرض الوصاية عليه، و ما كان يمكن للاستشراق أن يصنع ويخترع تلك الصور النمطية للشرق لو لم يكن الشرق نفسه قابلاً لأن يشرقن على حد تعبير إدوارد سعيد، فكان بذلك ضحية مؤامرة نسجت حوله وحية اغتصاب سياسي وعسكري انتهكت حقوقه من طرف الغرب الذي مارس فكرة النفي والإقصاء على ذلك الفضاء، وبتلك الصورة النمطية المشوهة عن الشرق تعززت مكانة الآخر الغربي الذي بدوره انطلقت فيه التمثيلات من موقع العنصرية الثقافية المتواطئة مع المعرفة والسلطة والمتداخلة مع الأنظمة الثقافية التي جعلت الشرقي موضع الضحية "فالتمثيل ورواجه يرتبط بقوة الحضارة وازدهارها، والثقافة تكون قادرة على التمثيل حين تتوافر لها مقوماتها الغلبة من قوة وسلطة وهيمنة وحين تفقد كل ذلك فإنها تغدو غير قادرة على التمثيل، وينطبق هذا على حاضر الثقافة الغربية حين تتواطأ القوة مع المعرفة من أجل الهيمنة على الآخرين وحكمهم" (الخضراوي، 2007، ص92)

يواصل في مؤلفه الآخر الثقافة والإمبريالية مشروعه الفكري من موقع المثقف الواعي بأدواره الطلائعية باعتباره مشروعاً مكملًا للاستشراق حاول من خلاله "تقديم أجوبة على أسئلة أثارها الاستشراق، فما تم إغفاله في الاستشراق تم تداركه في الثقافة والإمبريالية" إن ما أغفلته في الاستشراق هو تلك الاستجابة للسيطرة الغربية التي توجت بالحركة العظيمة لفكفكة الاستعمار عبر العالم الثالث بأسره. لقد رافق المقاومة المسلحة في أماكن متباينة تباين الجزائر وإيرلندا وأندونيسيا في القرن التاسع عشر قدر عظيم أيضاً من جهود المقاومة الثقافية في كل مكان تقريباً..." (إدوارد، 2004، ص57)

أعاد من خلال المؤلف قراءة نصوص سردية غربية أنتجت تورط الخطاب الغربي في تعزيز الإمبريالية فكانت الرواية التي هيأت المناخ للزعات الاستعمارية " فالرواية هي أكثر الأشكال الأدبية الرئيسة حدثة زمنيا، وإن نشوءها هو الأكثر قابلية للتاريخ، وحدوثها هو الأكثر غربية، ونسقتها المعيارى للسلطة الاجتماعية هو الأكثر بينية " (ادوارد، 2004، ص139)

ولقد حصنت الرواية والإمبريالية إحدهما الأخرى إلى درجة عالية يستحيل معها تبعا لما أطرحه قراءة إحدهما دون التعامل بطريقة ما مع الأخرى " (ادوارد، 2004، ص58)

لقد نشأت الرواية باعتبارها جنسا أدبيا قائما على خلفية إيديولوجية في سياق ثقافي خادما للإمبراطورية ومعرز لهيمنة ما وراء البحار" إن نقطتي الأساسه هي أن القصص أيضا تكمن في الباب مما يقوله المكتشفون والروائيون عن الأقاليم الغربية في العالم، كما أن القصص أيضا تغدو الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المستعمرة لتأكيد هويتها الخاصة ووجود تاريخها الخاص، لا شك أن المعركة الرئيسة في العملية الإمبريالية تدور طبعا من أجل الأرض لكن حين آل الأمر إلى مسألة من كان يملك الأرض ويملك حق استيطانها والعمل عليها ومن ضمن استمرارها وبقائها ومن استعادها ومن يرسم الآن مستقبلها فإن هذه القضايا قد انعكست ودار حولها الجدال بل حسمت أيضا لزمن ما في السرد الروائي إن الأمم كما اقترح أحد النقاد هي ذاتها سرديات ومرويات، وإن القوة على ممارسة السرد أو على منع سرديات أخرى من أن تتكون وتبرز لكبيرة الأهمية بالنسبة للثقافة والإمبريالية، وهي تشكل إحدى الروابط الرئيسة بينهما، والأكثر أهمية هو أن السرديات الجليلة الكبرى للتحرر والتنوير قد جندت الشعوب في العالم المستعمر وحفزتها على الانتفاض وخلع نير الإمبريالية" (ادوارد، 2004، ص118)

ويمكن التدليل في هذا السياق برواية "روبنسون كروزو" لدانيال ديفو "Daniel Defoe" التي تتحرك خيوطها في إطار الهيمنة على المستعمرات في رحلة للبطل إلى جزيرة نائية مفتقرة لجميع الإمكانيات، يحاول من خلالها البطل أن يطوع الجزيرة تبعا لقيمه وأفكاره، يصطدم بشخصية فرايداي البدائي غير المتحضر، وعبر عملية التحويل ينقله من حياة البداوة إلى حياة التحضر والمدنية في إطار علاقة لا متكافئة قائمة على أساس الهيمنة، ليكون فرايداي رمزا للشعوب المستعمرة التي تستمد كينونتها من عناصر دخيلة، تدعي شعارات الحضارة والواقع عكس ذلك، يرجع روبنسون إلى موطنه ولكن يبقى على اتصال بفرايداي ليكون ذلك الاتصال تدخلا لا مباشرا في شؤون المستعمرات التي حصلت على استقلالها، وبذلك يمكن القول بأن هناك ملابسات اجتماعية واقتصادية وثقافية اجتمعت لتجعل من الرواية خطابا خادما للزعات الاستعمارية، وأهم تلك الملابسات هي الإيديولوجيا الغربية المهيمنة التي تتحكم في النتائج الأدبية.

2.2. سرديات ما بعد الاستعمار ومشروع المقاومة الثقافية: إذا كان السرد الروائي الغربي متواطئا مع الإمبريالية فإن إدوارد سعيد يجترح آلية تفكيكية يطلق عليها بالقراءة الطباقية " فحين كانت المقاومة السياسية لقوة الغرب تتصاعد في العالم الهامشي الأطراف يغدو ممكنا الآن أن نعيد تأويل سجل محفوظات الثقافة الغربية كما لو كان مشروخا جغرافيا وأن نقوم بنمط مختلف من القراءة والتأويل فحين نقوم بالنظر إلى سجل المحفوظات الإمبريالي نأخذ بقراءته لا واحدا بل طباقيا بوعي متآين للتاريخ الحواصري الذي يتم سرده" (ادوارد، 2004، ص119)

إن مفهوم سعيد للقراءة الطباقية يقوم على أساس الفكرة ونقيضها، فإذا كانت الإمبريالية وجب أن يكون المنظور الذي توفره المقاومة "فالقراءة الطباقية ينبغي أن تدخل في حسابها كلتا العمليتين العملية الإمبريالية وعملية المقاومة لها ويمكن أن يتم ذلك بتوسيع قراءتنا للنصوص لتشمل ما تم ذات يوم اقصاؤه بالقوة" (إدوارد، 2004، ص ص 134، 135)

إذا كانت كاتبه مثل جين أوستن متورطة بعمق في مجتمعا الغربي، كتبت وفي ذهنها جمهور غربي وكتبت عن شخصيات وأماكن يملكها أوروبيون فيما وراء البحار وهي ليست بملكهم لأنها ملك السكان الأصليين كالهنود والكاريبين، فليس جدير بنا أن نفعل الأمر نفسه "ينبغي علينا أن نقرأ النصوص المكونة العظيمة، بل ربما أيضا سجل المحفوظات الكامل للثقافة الحديثة وما قبل الحديثة في أوروبا وأمريكا باذلين الجهد لاستخلاص ما هو صامت أو موجود هامشيا أو مقموع عقائديا في مثل هذه الأعمال وتوسيعه وتأكيده والإفصاح عنه" (إدوارد، 2008، ص 244)

ولئن كان ذلك هو حال الرواية التي حملت تطلعات وآفاق استعمارية فكانت أسيرة فكر غربي، فإن الرواية ما بعد الاستعمارية هي الرواية التي نشأت لتكون استجابة لصوت المهمشين، ولتكون قراءة طباقية للفكر الغربي الاستعماري وتعريه لإيديولوجياته، وفضحا للسلطة بمختلف مظهراتها فمن المستحيل الحديث عن طرفي التضاد بين الشرقي والغربي كلا على حدة، أتحدث عما أسميه مساحات التجربة المتداخلة، المسألة هي أن الإمبريالية لم تكن من طرف واحد فقط، كانت ثنائية وكان الطرفان مترابطين على الدوام وهنا يأتي دور الأسلوب الطباق... عوضا عن النظر إليها أي الإمبريالية على أنها مجرد نغمة في الأعلى يرافقها عزف سخيف في الأسفل أو حتى صمت تراها عملا متعدد النغمات عليك كي تفهمها أن تدرك مفهوم المساحات المتداخلة أو التواريخ المتكافئة كما أسميها، ذلك هو الأسلوب الوحيد للحديث عنها كي تتمكن من الحديث عن التحرير ودحر الاستعمار والنظرة التكاملية عوضا عن النظرة الانفصالية" (إدوارد، 2014، ص 80)

فإن نقرأ الرواية ما بعد الاستعمارية هو أن نقرأها من زاوية نقدية ثقافية" لأن الهدف هو اجتراف فهم جديد بالرواية من حيث هي ممارسة تخيلية وثقافية" (إدوارد، 2014، ص 135) لتصبح بذلك نصا ثقافيا منفتحاً على التصورات النقدية المغلقة تنهض لإدانة المراكز التي فرضت القوة على التاريخ والثقافة، وتعمل على نزع الشرعية على الوجود الاستعماري والقمع السلطوي السياسي الذي يفرض الصمت على المهمشين، ليس بالوقوف عند الجماليات التي تحويها النصوص الروائية وإنما بالبحث فيما وراء الجماليات" يجب أن تدخل القراءة في الاعتبار أن ما كان مؤكدا بالنسبة لعمل ما أو مؤلف ما قد يكون أصبح عرضة للخلاف" (بن الوليد، ص 14)

في إطار مشروع المقاومة الثقافية، ينتج سعيد من موقع المثقف مؤلفاته لتكون ردا وإدانة للإمبريالية وفضحا وتعريه للإنشاء للاستشراق" فلم يكن التمثيل الذي أنجزته الثقافة الغربية حول الآخر (الشرقي) بمنأى عن المقاومة، فقد تم رد الهيمنة بهيمنة مضادة تبحث عن استراد صوت التابعين الذين ادين تمثيلهم من طرف الآخر الذي عمل على إساءة التمثيل وبشكل منظم ومدرّوس على تنميط العربي" (إدوارد، 2014، ص 268) فوجد هذا الأخير نفسه محاصرا ضمن تلك القوالب النمطية الجاهزة والهويات المتبورة، فكانت الحاجة ماسة إلى مقاومة ثقافية تشتبك مع الهيمنة الغربية من أجل التحرر من تلك الصور والتمثيلات، التحرر بما هو فعل ثقافي ينهض بالذات الشرقية ويحولها من موضوع مدرّوس إلى ذات دارسة، فعلى حد تعبير إدوارد سعيد: "إذا كان الاستعمار نظاما كما كان لسارتر أن يقول في إحدى مقالاته التي تلت الحرب العالمية الثانية، فإن المقاومة بدأت تشعر بأنها

نظامية أيضا، وكما أن الأوروبيين رأوا إفريقيا تماحيا مكانا فارغا حين اغتصبوها أو افترضوا بداهة وجودها في متناولهم خاملة، مستسلمة، فقد وجد الأفارقة المفككون للاستعمار ضروريا أن يتخيلوا إفريقيا من جديد معراة من ماضيها الإمبريالي " (ادوارد، 2015، ص405) فقد كان لابد من تبني استراتيجيات الاختلاف وتكذيب المزاعم، فالغرب بدوره ليس النموذج الأمثل للتطور، إنه الغرب الغارق في حبائل المادية واللاإنسانية يكتفي برفع الشعارات ولكن الواقع عكس ذلك. ولئن كان هيجل قد عمق فكرة المركزية الغربية من خلال ذلك التمثيل الذي أفضى به إلى إعلاء الغرب وإقصاء الشرق الذي مثل طفولة التاريخ، فقد وقف إدوارد سعيد بدوره في "الاستشراق" فاضحا ذلك التمرکز، كاشفا؟ آليات اشتغاله في قراءة مضادة أطلق عليها القراءة الطباقية "فلاستشراق لم يكتب ليكون سردا تجريديا لعملية تاريخية، بل ليكون تحررا من الصور النمطية ومن الهيمنة على ناسي سواء أعربا كانوا أم مسلمين أم فلسطينيين " (ادوارد، 2007، ص37)

لقد كان إدوارد سعيد "واحدا من القامات الفكرية التي تضاف إلى رصيد الثقافة العربية التي فضحت المشروع الغربي، وكشفت عن آليات الهيمنة بين السيد والعبد وكرست خطابا مضادا قائما على أساس المواجهة والحد من التمرکز الذي نسبته الغرب لنفسه، اهتم فيه صاحبه بالحفر في البنى النسقية المضمرة خلف الخطابات الغربية وتفكيك آلية التمثيل الثقافي المعتمد من طرف الفكر الاستشراقي وزحزحة رؤاه وتفكيك أوهامه وسردياته .

لقد كانت المقاومة جزءا من مشروع استعادة الذات التي أبت الأنظمة الغربية إلا أن تغتالها في محاولة لاستكشاف الذات وإعادة ثقتها بنفسها، فمن تاريخ الانكسار تشكل الذات لتعيد تعيين موقعها ولتقول كلمتها كلمة التابع الذي ادين تمثيله ليقطب إدوارد سعيد بذلك ثنائية السيد والعبد، لقد أصبحت الأطراف المستعمرة التي فرضت عليها القوة الكولونيالية حالة الإسكات متملكة للخطاب والمعرفة ... هي العملية التي تؤكد أن الذات في الحكاية أصبحت في موقع الراوي وليس المروي عنه تملك القدرة على تمثيل تواريخها ونقش صورها بعد أن صادرتها القوى الكولونيالية " (ادوارد، 2007، ص371)

من موقع المثقف الذي يعي أدواره الأساسية انخرط سعيد في مواجهة السلطة وكشف ألاعيبها فكان المتحدث باسم القضية الفلسطينية من خارج فلسطين، أدان الاحتلال الصهيوني كما أدان مواقف أمريكا المعطلة لعملية السلام "لم تخدم اللقاءات مصالحنا حين طرح الأسئلة حول السياسة الأمريكية لا نحظى بأجوبة في معظم الأحيان ..علينا أن نتعامل مع الولايات المتحدة مثلما تعامل الفيتناميون مع هنري كيسنجر بباريس ومثلما تعامل الجزائريون مع الفرنسيين ليست هذه بمباراة بين طفل وراشد، إنه صراع بين طرفين، بين خصمين منخرطين في مواجهة حقيقية، يناضل الطرف الأول الشعب الفلسطيني من أجل حقوقه بينما يعمل الطرف الآخر الولايات المتحدة وإسرائيل على طمس حقوق الفلسطينيين.... علينا أن نكشف كيف يعبر الطرف الأمريكي وبلا حياء عن اهتمامات الإسرائيليين دون التطرق إلى اهتماماتنا نحن " (ادوارد، 2007، ص372)

الحكومتان الإسرائيلية والأمريكية أعداؤنا، من المنطق أن تكون أفعالنا من مستوى أفعالهم كأعداء، لا يمكننا القول تحدثوا معنا لو سمحتم، هنالك فرق شاسع، على أية حال نحن الأضعف ليس لدينا حليف استراتيجي أو قوى مسلحة كافية، لدينا شعب شجاع ومبدع ملتزم التزاما بلا حدود بالنضال ضد الاحتلال في الضفة الغربية وغزة، هذا هو موردنا الأساسي..." (ادوارد، 2007، ص131) رغم الموقف من الولايات المتحدة، إلا أن سعيد يبقى مؤمنا بالقيم الكونية والمبادئ الإنسانية التي تقوم على الحوار للخروج من الأزمة والمقاومة بالفكر والفن بدل المقاومة بالمقاطعة والعنف .

3.2. انزياحات المنفى: من المنفى الحقيقي إلى المنفى المجازي: كانت تلك صورة إدوارد سعيد المثقف المسكون بهوم جيله ومأساة وطنه فلسطين، المنفى الذي أشاد بسرديّة المنفيين والعيش في الفضاءات البيئية "يعلم المنفى أن الأوطان في عالم علماني وعارض مؤقتة وعابرة على الدوام بل إن الحدود والحواس التي تسيجننا بأمان المنطقة المألوفة يمكن أن تغدو سجوناً ومعازل وغالبا ما يدافع عنها وتحى بلا مبرر أو ضرورة، أما المنفيون فيعبرون الحدود ويحطمون حواجز الفكر والتجربة" (إدوارد، 2007، ص 129)

تحول المنفى في الدراسات الحديثة من فضاء للشرح والغربة إلى فضاء مخصب رغم ما توجي به المرحلة الحديثة نفسها من شعور الإنسان بالعجز والقلق والاعتراّب الناجم عن المجتمع التكنوقراطي وسيادة العقل الأداتي، الثقافة الحديثة هي نتاج عدد كبير من المنفيين الذين يعبرون الثقافات والقوميات، يحملون أفكارهم معهم ليوطنوها في تلك المنافي وأماكن اللجوء، ليكون المنفى خدمة لتصورات الإنسان، قد يكون التعبير عن أفكار في المنفى لا يعبر عنها في الوطن المحفوف بالمخاطر، المنفى امتياز ورسم لخرائط تجارب لم يحياها المثقفون والمنفيون في أراضهم، إنه موتيف من موتيفات الافتداء " (إدوارد، 2011، ص 35)

إنها انزياحات المنفى الذي تحول إلى مجال لتفجير القدرات الإبداعية للمنفيين، وليس أدل من شيء إلا أن نصرب المثل بإدوارد سعيد نفسه، مثال المنفى الذي رحل ليكون الناطق الرسمي باسم فلسطين وشعبها، لقد حمل سعيد المكان في داخله ولم يغفل عنه لحظة، فكانت سيرته خارج المكان سيرة ذاتية اختلط فيها الألم والحزن بالحنين والطموح، "فالكاتب يحمل العديد من الخصائص الأدبية يستعيد فيه سعيد جزءا من ماض عام سياسي واجتماعي عبر الكتابة عن ماض شخصي ... كان الكتاب سجلا لماض مفقود عالم لم يعد كما كان تحولت فيه فلسطين إلى إسرائيل وانقلب لبنان رأسا على عقب بعد عشرين عاما من الحروب الأهلية ولم تعد مصر كما كانت قبل ثورة يوليو 52" (إدوارد، 2007، ص 131)

ويستدل إدوارد سعيد بأدورنو الذي عبرت رائحته التي تفجرت في أحضان المنفى عن مزايا وإيجابيات المنفى "ما يملئ تأملات أدورنو هو الاعتقاد بأن الوطن الوحيد المتاح الآن حقا على الرغم من هشاشته وعطبه هو في الكتابة..لقد غدا الوطن من الماضي وقصف المدن الأوروبية بالقنابل فضلا عن معسكرات العمل والتجميع ليست سوى منفذ لحكم سبق لتطور التكنولوجيا المحايث...فقد غدا جزءا من الأخلاقيات ألا يشعر الإنسان بالراحة حتى في وطنه" (إدوارد، 1991، ص 66)

إن العيش في المنفى معناه العيش مع تلك التكييفات المختلفة ومع الحياة الجديدة، إنه يعلن "المنزل هو الماضي أي انتهى وأفضل أسلوب للتصرف حيال كل هذا مازال على ما يبدو تصرفا غير ملتزم ومعلقا وإن لمن الأخلاقية ألا يشعر المرء بأنه في بيته وهو فيه" (إدوارد، 1991، ص 66)

يحلل سعيد كتاب أدورنو Theodor Adorno الذي يتبع أسلوبا معيناً في الكتابة قائم على التقطيع دون وجود حبكة فنية يهتدي بها القارئ، ذلك التقطيع والأسلوب المتشظي هو تمثيل لصورة المثقف الذي لا يستطيع الثبات في مكان ما.

وغير بعيد عن أدورنو يشير سعيد إلى إيريك أورباخ Erich Auerbach الذي قضى سنوات الحرب منفيا في تركيا فاستطاع أن يتخطى الحدود الإقليمية وأن يتأقلم مع تلك الفضاءات البيئية كما أسماها هومي ك بابا Homi k Bhabha .

هنري كسينجر وبريجنسكي تبرعا بمواهبهما للبلد الذي اختاراه وطنا لهما محققين بذلك نتائج في الرفعة والمكافآت المادية والنفوذ القومي إن لم نقل العالمي النطاق تخطت بأدهر الظلمة الهامشية التي يقبع فيها مفكرو المنفى من العالم الثالث..." (إدوارد، 1991، ص 67)

إننا وفي ظل عالم المنفى الذي أصبح فيه الذات في صيرورة ازدواج، تعيش في المنفى الأوطان البديلة ولكن تفكر في الوطن وكل مشهد أو موضع في الموطن الجديد يستحضر بالضرورة نظيره في الموطن القديم وهذا يعني فكراً أن أي فكرة أو تجربة توازن دائماً بأخرى .. ومن التجاور الناشئ عن وضع هذه بجانب تلك تتكون لدى المرء فكرة أفضل وأكثر شمولية .." (ادوارد، 1991، ص116)

إنه المأزق الأنطولوجي الذي تحياه الذات في فضاء المابين والذي يفضي إلى كتابات تأخذ تشفيراً رمزياً يدعم مسار الخروج والانزياح والانتقال من أفق إلى أفق آخر تدشيناً لمسار جديد يستدعي تغييراً في ديناميات الكتابة المشحونة بالحنين إلى الأماكن الأصلية.

يتحدث إدوارد سعيد عن المنفى المجازي كفضاء للتأقلم والتحرر، فإذا كان المنفى الحقيقي هو الذي لا يستطيع الإنسان المنفي التأقلم فيه ومعه فيصير تهميشاً على الدوام، فإن المنفى المجازي هو لون من ألوان الحرية، وبدل النظر إليه من زاوية الحرمان يصبح موتيفاً من موتيفات التحرر والتحريك بعيداً عن الإكراهات التي تملها السلطة بمختلف مظهراتها "إن المثقف الذي يدفعه إحساس المنفى لا يستجيب إلى منطق ما هو تقليدي عرقي بل إلى شجاعة التجاسر وإلى تمثيل الغير والتقدم إلى الأمام لا إلى الثبات دون حركة" (ادوارد، 2011، ص70)

على خلفية المنفى المجازي تنزاح دلالة المنفى عند كبار المنفيين لتكون تفجيراً لقدرات مكبوتة وتجاوزاً لحدود الجغرافيا والوطن والهوية ومعادلاً للكتابة عن السلطة بكل حرية لأن إبعاد المثقف ونفيه ضرب من ضروب التحرر لأولئك المثقفين "فالتشريد الإبعادي للمثقف يعني تحرراً من المهنة الدائمة المعتادة التي يشكل التنعم بالثراء واقتفاء الآثار العريقة معلمها الرئيسيين، المنفى معناه أن تظل على الدوام هامشياً وإن ما تفعله كمثقف يجب أن يخلق" (ادوارد، 2011، ص66)

بتلك الصورة: صورة الخروج من المكان الأصلي والانزياح عنه تعيد الذات تشكيل أوأصراً الانتماء مع المكان البديل، أمكنة المنفى وتقويض نزعات التمرکز الثقافي التي ركز عليها التصور المغلق للهويات لصالح اللجنة الثقافية وأمكنة العبور أو الفضاءات البينية، إنها الهوية الرمادية التي راهن عليها إدوارد سعيد وغيره من نقاد ما بعد الكولونيالية.

من تلك الصور لكبار المنفيين صاغ إدوارد سعيد مفهومه للمثقف الذي يحمل رسالة جوهرها الالتزام بقضايا المجتمع وما يحمل ذلك الالتزام من الوقوع في المخاطرة «من المهام المنوطة بالمثقف / المفكر أن يحاول تحطيم قوالب الأنماط الثابتة والتعميمات الاختزالية التي تفرض قيوداً شديدة على الفكر الإنساني وعلى التواصل بين البشر" (ادوارد، 2007، ص19)

يضرب سعيد مثلاً بسارتر المثقف الحقيقي الذي واجه الاستعمار في حرب الجزائر رغم إثارة الغضب من طرف خصومه بسبب مواقفه المعادية " فعندما أقرأ جان بول سارتر أو برتراند راسل أجد أن ما يؤثر في هو الصوت والحضور الفردي الخاص إلى جانب الحجج التي يسوقها لأنها يعرّيان هنا عن معتقدتهما ومن المحال أن أتصور أن أحدهما موظف مجهول أو بيروقراطي حريص" (ادوارد، 2007، ص45) فلا يكفي من وجهة نظر سعيد أن تجسد الخبرة التاريخية للشعوب في أعمال فنية جمالية، ولكن المهمة المنوطة بالمثقف تكمن في إضفاء الطابع العالمي الإنساني الصريح على ما عاناه جنس أو مجموعة معينة مثلما فعل سارتر وفرانز فانون.

لقد طرح إدوارد سعيد قضية المثقف في علاقته بالسلطة "فدور المثقفين عموماً جدلي ومتناقض وهو أن يكشفوا ويوضحوا الصراع وأن يقهروا الصمت المفروض بالقوة والهدوء المطيع للسلطة الخفية أينما وكلما كان ذلك ممكناً" (ادوارد، 2011، ص267)

إن معظم المثقفين عند سعيد يؤدي الدور الاجتماعي الذي حدده غرامشي لكن القلة فقط من يتجرأ على قول الحقيقة ومواجهة السلطة فالصورة الفعلية للمثقف قائمة على تخاذل المثقفين وابتعادهم عن الخوض في قضايا الشأن العام وبالتالي من الصعوبة بما كان الحديث عن المثقف الحقيقي المستقل الذي لا يحمل تفويضا من أي سلطة، وبالتالي نحن بحاجة في ظل الصور المتعددة للمثقفين إلى المثقف النقدي المنتج للأفكار، إنه المثقف التقدمي الذي يعي الدور الموكل إليه .

3. خاتمة:

- تغذت نظرية المثقف في الفكر الغربي من معين مثقفين طلائعيين مارسوا نفوذا على الثقافة العربية في ضبط القيم والممارسات التي لطالما آمنوا بها فكان سارتر، بندا، أنطونيو غرامشي والذين تلخصت أدوارهم في الوقوف في وجه السلطة وإدانة ممارساتها ولئن كان ذلك حال المثقفين الغربيين كذلك الحال بالنسبة لمثقفين عرب من أمثال إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" الذي يندرج في إطار المقاومة الثقافية بوصفها دفاعا عن الشرق، الإسلام وهجوما على الغرب وإنهاء أسطورته كونه ممثل الإنسانية.
- إن الدور المنوط بالمثقف لا ينحصر عند حدود إنتاج الأفكار، بل يرتبط بممارسته النقد الجذري بمختلف أشكاله ومستوياته: ممارسة النقد السياسي لخطاب السلطة وممارستها.
- أبرز إدوارد سعيد أهمية المنفى والمنفيين وإسهاماتهم في بعث الحركة الثقافية في الغرب من خلال تجربته الخاصة التي جعلته يتعامل مع سلبيات المنفى الذي تحول عنده من فضاء للشرح والانطواء إلى فضاء من فضاءات الألفة.
- من خلال تتبع المسار التاريخي لإشكالية المثقف عند إدوارد سعيد وغيره من المثقفين تبين أن التمثيلات التي رسمها للمثقف ليست واحدة، بل اتخذت أبعادا بحسب السياقات والتحويلات التي شهدتها العلاقة المركبة تاريخيا بين المثقف والسلطة، فسؤال المثقف ما يزال موضوع الجدل وذلك عائد لغياب المثقف الطلائعي الذي يسعى للتنوير في مجتمع قائم على قمع السلطة لخطاب المثقفين.
- شكل المنفى موضوعا من موضوعات نقاد ما بعد الكولونيالية، فكان المنفى المجازي عند إدوارد سعيد الذي هو لون من ألوان الحرية وبديل النظر إليه من زاوية الحرمان أصبح موتيفا من موتيفات التحرر والتحريك بعيدا عن السلطة المركزية.

4. قائمة المراجع

1. جان بول سارتر: دفاع عن المثقفين، ترجمة: جورج طرايشي، دار الآداب، بيروت، ط1، 1973.
2. أنطونيو غرامشي: رسائل السجن، ترجمة: سعيد بوكرامي، منشورات الجمل، ط1، 2014.
3. إدوارد سعيد: المثقف والسلطة ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر، القاهرة، ط1، 2006، ص32
4. إدوارد سعيد: الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر، القاهرة، ط1، 2006، ص46
5. إدوارد سعيد: الاستشراق: المعرفة- السلطة- الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط7، 2005، ص47
6. يحيى بن الوليد: الوعي المحلق، إدوارد سعيد وحال العرب، رؤية للنشر، ط2010، ص186
7. إدريس الخضراوي: الأدب موضوعا للدراسات الثقافية، جذور للنشر، ط2007، ص92
8. إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط2014، ص57
9. إدوارد سعيد: السلطة والسياسة والثقافة، ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت، ط2008، ص1، 244
10. إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط2014، ص80

11. إدوارد سعيد: تأملات حول المنفى، ترجمة: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، ط2، 2007 ص37
12. إدوارد سعيد: خيانة المثقفين، النصوص الأخيرة، ترجمة: أسعد الحسين، نينوى للنشر، دمشق، 2011، ص35
13. إدوارد سعيد: صور المثقف، ترجمة: غسان غصن، دار النهار للنشر، بيروت، ط1، 1991، ص66